قصة مصرية

ليـــــــــــلة فى العمر

بقلم الأستاذ محمد السيد

دخل (الخاخام) منزل المرأة العزباء، ثم ألقى نظرة سريعة على الموائد الموضوعة فى الردهة وما عليها من الآنية الفضية ، وما حولها من معدات مأدبة أنيقة، وإن لم تكن ذات بال، ثم التفت إلى ربة البيت وقال: حسنا — لقد أعددت كل شىء يا (إستر) .

فأجابت المرأة على الفور : أجل يا سيدى الخاخام .

ثم تفقد الرجل بعض الآنية الموضوعة على الموائد ، وأخذ يحدق إليها مليا، وجعل يطريها، ويطرى صاحبتها التى تمنى لها حياة سعيدة ناعمة ، ثم انصرف لشأنه (ضاحكا) تشيعه نظرات حائرة ، وآهات مكنونة ، من أعماق تلك المرأة السعيدة ، أو المرأة البائسة ، على السواء .

ودعت (استر) ضيفها ، وعادت ... مهمومة ، مسرعة ، كأن شيئاً قد فاتها ، أو كأنها تريد أن تدرك القطار ، وقد آذن موعد الرحيل ... فهى تصدر أوامرها للخدم ، ثم تجلس هنا هنيهة ، وتقف هناك برهة ، تباشر بنفسها عمل كل شىء ، وإن كانت لاتعمل أى شىء .

ثم حانت منها التفاتة إلى المرآة الموضوعة فى الردهة ، فتقدمت منها رويداً رويداً ، وراحت تتأمل نفسها ، وتمعن ، وتدقق ، كأنها تفحص شيئا ، أو تبحث فى المرآة عن شىء فلا تجده ، ولا تصل إليه . . . وكانت نتيجة ذلك أن أخذتها رعدة ، ثم احتواها شعور غريب ... ينم على خوف من شىء مجهول ما كانت تعرفه من قبل أو تفكر فيه ... ذلك أنها رأت (مفرقها) وقد علته شعرات بيضاء ، فارتاع فؤادها ، وراعها ما راعها ...

ويلاه!.. ويلاه !.. ماذا حدث ؟ حتى ابيض شعرى !! أعجوز أنا ؟

كلا ... وألف كلا ... فأنا ما أزال صبية ... نعم : أنا صغيرة ... فى فجر العمر ، وشرخ الشباب ... أليست آية ذلك أنى لم ألد إلا مرة واحدة ، وليس لى إلا ولد واحد ؟...

وراحت تغالط نفسها ، وتقيم الأدلة والبراهين على أنها ما تزال صغيرة حتى لقد ألقى فى روعها أنها ماتزال بكراً لم يمسها إنس ولا جان ...

وسرعان ما ارتدت عن المرآة مغيظة محنقة ، ولو كان بيدها أو بجانبها شىء تكسر به تلك المرآة اللعينة لما ترددت ...

***

(استر) تلك أمرأة نصف ، لا هى بالفتاة الحسناء ، ولا بالعجوز الشوهاء، تبدو للناس : مرحة ، أنيقة ، نزقة ، لاتعرف من حساب الزمن إلا أنها تعيش ليومها ، تعبث بالحياة وتضحك

من الناس ، فالهم لا يعرفها، وهى لا تعرفه ، ثم من ذا الذى يستطيع فى هذه الدنيا أن يحزن تلك المرأة التى رحل عنها زوجها إلى الدنيا الحديثة حيث يعيش فيها ، ثم رحل أبواها إلى الدار الآخرة، وبقيت هى من غير زوج ولا أهل ، تستسهل صعب الحياة وتعيش بثغر دائم الابتسام، فلا تراها إلا ضاحكة أو عابثة ...

***

ولما أقبل المساء ، توافد المدعوون، حتى امتلأت بهم ردهات البيت وحجراته ، وكل منهم يهنىء (العروس) ويتمنى لها أعذب الأمانى، وأرغد العيش وأهنأه وأصفاه ، ثم أخذ القوم يسمرون ، ويلهون بما أعدت لهم تلك المرأة من : لهو ، وطرب ، وفكاهة .

***

وما أن دخل (العريس) الشاب فى جمع من صحبه وخلانه يتعثر فى ثيابه الفضفاضة وحذائه الفخم ، حتى التهمته أنظار الكافة متضاحكين متغامزين... ثم تقدم به نفر من صحبه إلى (العروس).

ولقد استقبلته أحسن استقبال ، ثم جلس بجانبها يحدثها ...

ـ أين العروس ياهذه ؟ فأجابته : أنا هى...

ـ أنت ؟.. أنت العروس إذن !!!

ـ نعم: أنا هى ... ألست أنال رضاك وأحوز إعجابك ياسيدى ؟

ـ كيف لا ؟

ـ لكن أنت ... (مسنة) ، أليس كذلك ؟

أجابت فى غضب ، وجفوة : مسنة ؟ كيف ؟ أأنا مسنة ؟!! لا لا لا ... أنا لست مسنة ، أنا شابة . . . افتح عينيك ، وانظر جيدا ... ولماذا تأخذ الألف جنيه إذا كنت أنا مسنة؟

ـ عفواً ياسيدتى ، أنا نسيت... أنا أخطأت ...اغفرى لى من فضلك ، فان فيك ملامح بل شبها قويا من المرحومة والدتى التى اختارها الله منذ عشرة أعوام كاملة ...

***

وكان (مراد) أو (كلوبوزو) ـ كما يسميه أطفال الحارة الأشقياء ـ يبيع اليانصيب، فتيرا معدما ، لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، يمشى طوال الوقت يعرض أوراقه ، فاذا انتهى النهار وشطر كبير من الليل ، آوى إلى كهف فى (الحارة) من تلك التى يصطنع المبيت فيها أبناء السبيل لقاء ملاليمات...فاذا كان اليوم الثانى عاد سيرته، فهو من الشقاء والفاقة كمن يسير فى اسطوانة مفرغة تنتهى حيث تبتدىء وتبتدىء حيث تنتهى .

وكان (مراد) إلى جانب هذا ساذجا ، فالتفت إلى زوجته وأخذ يسألها : أكل هذا المنزل وما يحتويه لك وحدك ؟ أهل كل ما تلبسين من جوهر وذهب لك وحدك ؟ هل هذا كله لك ؟

ولما لم تجبه تولى هو الاجابه بنفسه عن تلك الأسئلة جميعها...

— نعم إن التى تدفع للعريس (دوطة) ألف جنيه، تستطيع أن تملك الدنيا وما فى الدنيا...

ثم أخذته طيوف لذيذة وأحلام كلها هناء وسعادة، فراح يسألها مرة أخرى:

— والألف جنيه متى تدفعينها؟

— أدفعها الآن حالا ...

— ولكن ماذا أفعل بها؟

— تفعل بها ماتريد ...

كيف أفعل بها ما أريد ... إنى أريد أن أعرف ماذا أصنع بها... ألست زوجى ومن حقى أن أستشيرك فى كل شىء؟

فأجابت: نعم، هو ما تقول ...

ـ غدا؟ لا ليس غدا، بل الآن اسمعى ... ستدفعين الألف جنيه، وسأقبضها طبعا ومن غير شك، أليس كذلك؟

ـ نعم ستقبضها ...

إذن: أستطيع أن أكون تاجرا ... تاجرا كبيرا ... لكن السوق فى هذا الزمن قلب، ربما أضاعت النقود، فالأحسن أن أتجر بمائة وأضع الباقى فى البنك، لاحسابا جاريا، ولكن بفائدة ... أليس الأحسن ذلك ياعزيزتى؟

ـ أنت حر فى مالك طبعا ...

ـ أوه ... ألست زوجى، ومن حقى أن أستشيرك فى مهماتى؟

ـ نعم هو ذلك.

ثم أخذ يستعجلها قبض المبلغ، فاستمهلته حتى يحضر (السنيور) لأجراء صيغة العقد الشرعية أولا، فوافق واشترك مع الجمع الحاشد فيما هم فيه من مأكل ومشرب ولهو غير أثيم.

***

ولما وافت الرابعة صباحا أخذ الحاضرون يتسللون إلى الخارج لواذا، ولما لم يبق إلا خدم المائدة استعجل (مراد) صاحبته.

أين (السنيور) وأين الدنانير ياهذه؟

ثم أخذ هذا الاستعجال يتطور إلى شىء من الأمر والنهى، بل إلى شىء أخر من الشغب والملاحاة.

فقاده اثنان من الخدم إلى الخارج، ودفعا به إلى غول الظلام واليأس، وأسر أحد الشقيين فى أذن المسكين: ألا تعرف أن هذا اليوم أول إبريل (ياعبيط)؟

محمد السيد